

الفصل التاسع

غزوة اليمامة

الجيش الذي أمد
به أبو بكر خالداً
لقتال مسيلمة

سار خالد بن الوليد من البطاح على رأس عسكره ومعه المدد الذي أمدّه أبو بكر به ، ومقصدهم جميعاً اليمامة ، يلقون بها مسيلمة بن حبيب متنبئاً بنى حنيفة . ولم يكن هذا المدد الذي بعث به الصديق دون جيش خالد أيّداً أو قوة . فقد تألف من رجال من المهاجرين والأنصار أصحاب رسول الله الذين شهدوا الحرب فشهدت لهم الحرب ، ومن القبائل التي عرفت في القتال بالبأس والبطش . ولقد كان ثابت بن قيس والبراء بن مالك على رأس الأنصار ، وأبو حذيفة بن اليمان وزيد بن الخطاب على رأس المهاجرين ؛ أما القبائل فكان على كل قبيلة زعيمها . وهل كان لأبي بكر أن يضمن على قائد عسكره للقاء مسيلمة بمعدد ! لقد كان يعلم أن أربعين ألفاً يقفون إلى جانب هذا المتنبئ في عدة القتال ، وأنهم يؤمنون به ويلاقون الموت في سبيله ، فإذا هو لم يرمهم بخيرة المسلمين في القيادة ، وفي البطولة ، وفي خوض المعامع ، تعرضت سياسته في قتال أهل الردة جميعاً للفساد . وأبو بكر أحصف وأعلى رأياً وأبعد نظراً وأقوى إيماناً من أن يعرض الإسلام الناشئ لمثل هذا المصير .

وكان بين هؤلاء الذين أمد بهم أبو بكر خالداً جماعة من القراء حفّاظ كتاب الله ، كما كان بينهم جماعة ممن شهدوا بدرّاً . هذا مع أن أبا بكر كان يضمن بأهل بدر ويقول : « لا أستعمل أهل بدر ، أدعهم حتى يلقوا الله بصالح أعمالهم ؛ فإن الله يدفع بهم وبالصالحين أكثر مما ينتصر بهم » . وإنما خرج الصديق على رأيه ذلك ، فأمد خالداً بالبدرين وبمن شهدوا المواقع في عهد الرسول ، لأن مسيلمة كان قد استغلظ أمره في اليمامة ؛ فكل تضحية في سبيل القضاء عليه دفع عن دين الله ، وكل تهاون معه يزيد الثورة في بلاد العرب ضيراً ، ويزيد موقف المسلمين حرجاً .

والحق أن ما أدركه المسلمون إلى ما قبل اليمامة من النصر قد كان بالقياس

إليها هيناً يسيراً . كانت القبائل القريبة من المدينة والتي أرادت محاصرتها غداة بيعة الصديق ، لا يدعى أحد فيها النبوة ، ولا تطمع في شيء إلا أن تعني من الزكاة . وقد نجح عدي بن حاتم في صرف القبائل عن طليحة الأسدي ، فهان أمره فلم يقدر على المقاومة . ولم تكن أم زمل لتقوى عليها بمن اجتمع حولها من فلول تلك القبائل . وكان بنو تميم على خلاف بينهم ، وكانت سجاح قد وهنت من عزم مالك بن نويرة ، فلم يكن بينه وبين خالد بن الوليد قتال . أمامسيلمة ومن اجتمع حوله باليمامة فكانوا ينكرون أن يكون محمد رسول الله إليهم ، وكانوا يرون لأنفسهم ما لقريش من حق ، فلهم نبي ورسول ، كما لقريش نبي ورسول ؛ وبينهم من الجند البواسل أضعاف جند قريش عدداً . وهم إلى ذلك كتلة واحدة ، لا يفتأ في عضدهم خلاف ولا يضعضع من عزمهم تنافس ، وليس بينهم من التفاوت في العقيدة والجنس ما بين أهل اليمن . لا جرم ، وذلك شأنهم ، أن يكونوا أولى بأس وقوة يجب أن يحسب الصديق لها الحساب .

قوة مسيلة
وأسبابها

ولم تكن هذه العوامل وحدها هي التي لفتت نظر أبي بكر لتقوية غزاة اليمامة ما استطاع تقويتهم . فهو حين عقد ألوته الأحد عشر لحرب أهل الردة لم يكن يقيم لمسيلمة كل هذا الوزن ، أو يحسب لبني حنيفة كل هذا الحساب ، لذلك وجه إليهم عكرمة بن أبي جهل ، ثم وجه في أثره شُرْحَبِيل ابن حسنة يعاونه . وسار عكرمة إلى اليمامة ولم ير أن ينتظر شُرْحَبِيل ، بل بادر بقاء مسيلمة ليكون له فخار النصر عليه . وكان عكرمة بطلاً مجرباً وفارساً مغوراً ، وقد اجتمع في لوائه أبطال صناديد طالما أبلوا في الحرب أحسن البلاء . مع ذلك لم يثبت عكرمة ولا ثبت لوائه لمسيلمة ، بل نكبهم بنو حنيفة فانهزموا ، وبلغ من نُكْر هزيمتهم أن أقام شُرْحَبِيل بالطريق حيث أدركه الخبر على حقيقته الفاجعة . وكتب عكرمة لأبي بكر بالذي أصابه وأصاب جنده ، فملك أبا بكر الغضب وكتب إليه : « يا ابن أم عكرمة ! لا أرينك ولا ترني . لا ترجعن فتوهن الناس . امض إلى حذيفة وعمر فاجتهد في قتال أهل عُمَآن ومَهْرَة ، ثم تسير أنت وجندك تستبرءون الناس حتى تلقى المهاجر بن أبي أمية باليمن وحضرموت » . ولا أراني في حاجة إلى بيان ما في هذا الكتاب من مظهر الغضب .

عكرمة بن أبي
جهل ينهزم أمام
قوات مسيلة

وحسبك بدؤه بقوله : « يا ابن أم عكرمة » ، ففى هذه العبارة ما فيها من زراية واستخفاف .

كيف استغلظ
أمر مسيلمة ؟ !

كيف استغلظ أمر مسيلمة حتى بلغ هذا المبلغ ؟ ! لقد كان — على تعبير مؤرخى العرب — « رويحلا ، أصيفر ، أخينس » لا يدعو مظهره إلى تقدير واحترام . ولقد ذهب مع وفد بنى حنيفة إلى النبىؐ عام الوفود ، فلما بلغ الوفد المدينة لم يأخذه قومه ليأتى النبىؐ معهم ، بل خلفوه على رحالهم . ولما سلم القوم بذل لهم النبى العطاء ، فذكروا له مسيلمة ، فأمر له بمثل ما أمر به لكل منهم ، وقال يجامله : « أما إنه ليس بشركم مكاناً » ، وذلك لحفظه رجال أصحابه . أفيكون ذلك هو الذى يدعى النبوة من قومه ! لذلك لم يصدقه منهم أول الأمر إلا نفر قليل . أفعجزة تلك التى جمعت الألوف وعشرات الألوف حوله فيما دون السنتين ؟ كلا ! وإنما هى شعبذة المشعبذين ، وحيل المحتالين ، وانقياد الجماعات لهؤلاء وأولئك . فقد كان من أهل هذه الأرجاء رجل يُدعى « نهاراً الرجّال — أو الرجال — بن عُنْفُوَة » . وكان قد هاجر إلى رسول الله بالمدينة ، فقرأ القرآن ، وفقه الدين ، وعرف تعاليم الإسلام ، وكان ذكياً ذا بصيرة . أرسله رسول الله معلماً لأهل اليمامة يفقههم فى الدين ، ويرد من اتبع منهم مسيلمة ، ويشد من عزائم المسلمين ويشغب معهم على المنبى الكاذب . لكن « نهاراً » كان أعظم فتنة على بنى حنيفة من مسيلمة نفسه . فهو لم يلبث ، حين رأى السواد يتبعه ، أن أقرّ بنبوته وأن شهد بأن محمداً يقول إن مسيلمة قد أشرك فى الرسالة معه . ما عسى أن يقول أهل اليمامة عن هذا ! لقد شهد شاهد من أهل محمد لمسيلمة . وهذا الشاهد رجل فقيه عالم ، يتلو عليهم قرآن محمد ، ويقص عليهم تعاليمه ، ويفقههم فى دينه ، وهو يشهد لمسيلمة بالنبوة . ما إلى نفى ذلك أو الطعن فى صحته بعدئذ من سبيل . لذلك أقبل الناس على مسيلمة أفواجاً يؤمنون به رسولا لله إلى بنى حنيفة ، وبذلك أقبلت عليه الدنيا وأصبح فى متناول يده كل ما يشاء ويهوى .

نهار الرجال
وغدته

ووضع مسيلمة كل ثقته فى « نهار الرجال » وصار ينتهى إلى أمره فى كل ما يريد أن يقلد محمداً فيه . وجعل نهار ، لقاء ذلك ، يُعَبّ من نعيم الحياة

الدنيا ويستمتع بكل ما لذَّ له أن يستمتع به منها . وإذا الفقهاء والعلماء أسلموا
لمتاع الدنيا أنفسهم ، وأخضعوا لمن يملكون هذا المتاع علمهم ، فويل للعلم
والفقه ، وويل للحقيقة أى ويل ! . .

ولسنا نقف عندما يروى من محاولة مسيامة إتيان المعجزات ، ولا عندما
أوحى إليه في زعمه ، فذلك كله سخف لا يثبت للتاريخ ونقده . وحسبنا ما تقدم
بياناتاً للأسباب التي أدت إلى متابعة الناس مسيلمة وإلى استفحال أمره ، حتى
لم يستطع عكرمة حين لقيه إلا أن يعود منكوباً مهيبض الجناح .

ولا تسأل كيف اتبع مسيلمة عقلاء قومه ، وأنت تعرف العصبية العربية
وتعصب القبائل لاستقلالها وحريتها . ذكروا أن طليحة النمرى جاء اليمامة
فقال : أين مسيلمة ؟ قالوا مَهْ ، رسول الله . قال لا ، حتى أراه . فلما
جاء قال له : من يأتبك ؟ قال : رحمان . قال : أفى نور أم فى ظلمة ؟ قال
مسيلمة : فى ظلمة . ورد طليحة : أشهد أنك كذاب وأن محمداً صادق ، لكن
كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر . وفى رواية ذكرها الطبرى أن طليحة
قال : كذاب ربيعة أحب إلينا من كذاب مضر . واتبع الرجل مع ذلك مسيلمة
وقاتل وقتل معه .

طليحة النمرى
وكيف اتبع
مسيلمة

أمّا وذلك شأن مسيامة وما أصاب عكرمة فى قتاله ، فلم يكن بين قواد
العرب من ينزله غير داهية الحرب وعبقريتها خالد بن الوليد ، ولم يكن عجباً أن
يعزز أبو بكر خالداً بالمدد . ثم إن الصديق كتب إلى شرحبيل بن حسنة أن
يقيم حيث هو حتى يجىء خالد إليه . فإذا فرغوا من مسيامة لحق شرحبيل بعمر
ابن العاص يعينه على قضاة فى شمال شبه الجزيرة .

خالد يسير إلى
اليمامة بجيشه

وفى خالد يسير إلى اليمامة التقت جيوش مسيامة بلواء شرحبيل واضطرت
إلى الارتداد . يقول بعض المؤرخين إن شرحبيل صنع ما صنع عكرمة ، وأراد
أن يفوز بفخار النصر فأصابه ما أصاب سلفه . ولعل الأمر لم يكن كذلك ،
ولأنما تقدمت جند من اليمامة فلاقوا شرحبيل فارتد عنهم حتى ينجيه خالد .
وأى ذلك كان فقد بقى شرحبيل حيث تراجع حتى بلغته جيوش المسلمين ، فاما
عرف خالد ما أصابه لآمه أشد اللوم على صنيعه . ولعله كان يؤثر أن يتراجع

من غير أن يشتبك مع خصمه حتى لا يقوى الظفر روحهم المعنوية .

سرية مجاعة بن
مرارة يقتلها
خالد بن الوليد

ولإن جيوش خالد لتتلاحق إلى أرض اليمامة وتبلغ أنباؤها مسيلمة ، إذ خرج مُجَاعَة بن مُرَّارَة في سرية يطلب ثأراً له في بني عامر وبني تميم ، وقد خاف أن يفوته إذا شُغل بلقاء المسلمين وقتالهم . وأدرك مُجَاعَة ثأره وكرّ راجعاً مع أصحابه ، حتى إذا بلغوا ثَنِيَّة اليمامة كان التعب قد أخذ منهم فناموا . وأدركهم جيش خالد فتنبّهوا ؛ وعرف خالد أنهم من بني حنيفة ، وظن أنهم خفوا لقتاله فأمر بقتلهم ، لم يغن عنهم قولهم إنهم خرجوا لثأرهم . فقد سألهم عن رأيهم في الإسلام ، فكان جوابهم : نقول منا نبي ومنكم نبي . وقال أحدهم ، سارية بن عامر ، وهو يُعرّض على السيف يخاطب خالداً : « أيها الرجل ، إن كنت تريد بهذه القرية غداً خيراً أو شراً فاستبق هذا الرجل » وأشار إلى مُجَاعَة . واستبق خالد مجاعة لم يقتله ، وجعله كالرهيئة ؛ لأنه كان من أشرف بني حنيفة ، وكان له عندهم مقام كريم ، ولأن خالداً كان يطمع في معاونته إياه بالرأى . ولقد قيّده بالحديد ، وجعله في قبّته ، وجعل زوجه الجديدة ليلى أم تميم على حراسته .

لكنه يأخذ
مجانة رهينة عنده

جند مسيلمة
بعقرباء

كان مسيلمة قد جمع جنده بعقرباء في طرف اليمامة ، وجعل الأموال وراء ظهورهم . وكان هذا الجند أربعين ألفاً ، وقيل ستين ألفاً . وهذه أعداد قلما سمع العرب بمثلها في الجيوش من قبل . وأقبل خالد غداة اليوم الذي ارتهن فيه مجاعة فصصف جنده في وجه مسيامة صفّ القتال . ووقف الجيشان ينظران أمر الصدام ، وكلّ يقدر أن مصيره معلق بمصير ذلك اليوم . ولم يبالغ أيهما في تقدير هذا الأمر ؛ فيوم اليمامة من الأيام الحاسمة في تاريخ الإسلام وفي تاريخ العرب .

يوم اليمامة
حاسم في تاريخ
العرب

كانت قوة مسيامة قوة الردة المليحة والإنكار الصريح أن تكون نبوة محمد لغير قريش ، وأن تكون للناس كافة . وكانت هذا القوة هي المركز الذي تتطلع إليه الأعين من اليمن وعُصَمَان ومَهْرَة والبحرين وحضرموت والجنوب . كله من شبه الجزيرة منحدراً من مكة والطائف إلى خليج عدن ، وتتطلع إليه الأعين كذلك من بلاط فارس . وكانت جيوش مسيلمة تؤمن به وتتفاني في

سبيله ، ثم تزيدها الحصومة القديمة بين الحجاز وجنوب الجزيرة إيمانًا وتقانيًا . وكانت جيوش المسلمين زهرة قوتهم والملاذ والحمى الدين الله وكامته ؛ عليها خالد أعظم قائد عرفه التاريخ في عصره ، وبينها حفظًا لكلام الله قراءة القرآن ، وقد جاءوا جميعًا يملأ الإيمان قلوبهم بأن الجهاد في سبيل الله والدفع عن دينه الحق أول فرض على المؤمن ، وأنه فرض عين على كل ذى علم وبيضة . لا محيص إذن أن تكون المعركة حامية ، وأن تكون مثلاً لما لقوة الإيمان من بأس وسلطان .

وتقدم شُرْحُبِيل بن مسيابة يحرض جيش بني حنيفة بعبارات تهتز لها النفس العربية الدقيقة الحس بكل ما يتصل بالعرض والحسب أشد اهتزاز . صاح فيهم : « يا بني حنيفة ! اليوم يوم الغيرة ، إن هُزِمْتُمْ تُسْتَرَدَف النساء سبيات ، ويُنْكَحْنَ غير حَظِيَّاتٍ ، فقاتلوا عن أحسابكم ، وامنعوا نساءكم » ، وأمرهم أن يشدوا . والتقى الجمعان والمسلمون أمّا تحتدم حميتهم ؛ يقول المهاجرون لسالم مولى أبي حُدَيْفَةَ : تخشى علينا من نفسك شيئاً ؟ فيجيبهم : ينس حامل القرآن أنا إذا . بل لقد تنازوا بشر من هذا الحديث وأساء منه أثراً . جعل المهاجرون والأنصار يرمون بالجن أهل البوادي ، ويرميهم أهل البوادي بمثل ما يرمونهم به . يقول أهل القرى : « نحن أعلم بقتال أهل القرى يا معشر أهل البادية منكم » . ويقول أهل البادية : « إن أهل القرى لا يحسنون القتال ولا يدرون ما الحرب » .

ابن مسيلة يحرض قومه في بني حنيفة

لذلك لم يَشْبُتُوا لجموع بني حنيفة ، مع ما كان بين الفريقين من قتال شديد ؛ فانتفى صف المسلمين هزيمًا ، وزال خالد عن فُسْطَاطِهِ ، فدخله بنو حنيفة فرأوا فيه مُجَاعَةً مقيداً بالحديد ورأوا على مقربة منه أم تميم . وحمل رجل منهم بالسيف على ليلي يريد أن يقتلها ، فصاح به مجاعة : « مَهْ » ؛ أنا لها جَارٌ ، فَنِعِمَّتِ الحرة ؛ عليكم بالرجال ! » . وقطع الجند حبال الفسطاط ومزقوه بسيوفهم تاركين مجاعة وإيلي ينظران ما الله صانع بالقوم جميعًا .

تراجع المسلمين ودخل جنود مسيلة فسطاط خالد بن الوليد

على أن المسلمين لم يتراجعوا حتى قتلوا من بني حنيفة خلقًا كثيرًا . وكان في الأولين الذين قُتِلُوا نَهَارُ الرَّجَالِ القارئ الفقيه الخائن الخادع . خرج في

طلیعة بنی حنیفة ، فلقیه زید بن الخطاب فقتله ، فأزال بقتله من الوجود روح الإثم الّتی طوعت لمسیامة أن یبلغ ما بلغ ، وأن یقف وجنده یهدد المسلمین ویرسل الروح فی نفس کل حریص علی دین الله .

لم تزیل خالد بن الولید رباطة جأشه حین زال عن فسطاطه ، ولم یداخله ریب فی مصیر الیوم . لقد رأى أنما انهزم من جند المسلمین من انهزم لتنازیر الناس وتواکلهم ، فلو لم يتواكلوا انتصروا . لذلك لم یلبث حین لاحت له فترة تهادن بین الفریقین أن صاح فی الجند صیحة بطاش وغضب : « امتازوا أیها الناس لنعلم بلاء کل حیّ ، ولنعلم من أین نؤتی » . ودوت هذه الصیحة ، تداولها سمعُ الجيش کله فنبهته إلی حقیقة أمره . واطمأن خالد ، حین رأى الناس امتازوا ، إلی أنه قطع بأمره کل مظنة للتواکل ، وأنه هیأ للنصر طریقته .

صیحة خالد :
امتازوا أیها
الناس

الحیمة لدین الله
تثور فی قلوب
المسلمین

أثارت صیحة خالد مارکب فی الفطرة العربیة من قوة العصبیة ، ورأى زعماء المسلمین ما حل بهم ، فثارت فی قلوبهم الحیمة لدین الله ، وسما الإیمان بنفوسهم إلی ما فوق مراتب الحیة ، وتجاوی الاستشهاد أمامهم باسمًا مضییًا یفتح لهم أبواب الجنة خالدین فیها ، وأظلتهم نسمة من روح الله أرتهم الحیة لهوًا ولعبًا وغرورًا باطلا ، فانقلبوا من الهزیمة یطلبون النصر أو الشهادة . قال ثابت بن قیس - وكان علی رأس الأنصار - : « بشما عودتم أنفسکم یا معشر المسلمین ! اللهم إنی أبرأ إلیک مما یعبد هؤلاء (وأشار إلی أهل الیمامة) وأبرأ إلیک مما یصنع هؤلاء (وأشار إلی المسلمین) ، ثم اندفع إلی الوطیس یقاتل ویقتل ، وینادی : « هكذا عنی حتی أریکم الجلاد ! » وأبلی بلاء أذهب عن الأنفس الروح ، وظل یجاهد حتی خلصت إلیه الجراح من کل جانب فمات وقد رزق الشهادة . وكان البراء بن مالک من الصنادید الذین لا یعرفهم الفرار ، فلما رأى ما صنع الناس وثب وقال : « أین یا معشر المسلمین ! أنا البراء بن مالک . هلمّ إلیّ ! » . وسمعه المسلمون وکلهم یعرفون بأسه ، ففاء إلیه منهم فئة قاتلت القوم وقتلت منهم حتی أجلتهم عن مواقفهم . وهبت ریح أثارت الرمال فی وجوه المسلمین ، فذهب قوم یحدثون إلی زید بن الخطاب

ما يصنعون ، فكان جوابه : « لا والله لا أتكلم اليوم حتى نهزمهم ، أو ألقى الله فأكلمه بحجتي . غضوا أبصاركم وعضوا على أضراسكم أيها الناس ، واضربوا في عدوكم وامضوا قُدماً » واندفع في صدر القوم يقاتل ويقتل ، وجنده من ورائه ، حتى لقي الله يكلمه بحجته . وصاح أبو حذيفة بمن حوله : « يا أهل القرآن ، زينوا القرآن بالفعال » . وألقى بنفسه في الغمار يقاتل وقومه حتى ضمه الله إليه . وأخذ سالم مولى أبي حذيفة الراية وقال : « بش حامل القرآن أنا إن لم أثبت » : وقاتل حتى قُتل . بهذه الصيحات الصادرة من قلوب ملأها الإيمان قوة وبأساً ، سرت روح الاستشهاد في جند المسلمين جميعاً ، فهانت أمامهم الحياة واستحبوا الشهادة عليها ، فاندفعوا يطلبونها صادقين ، فردوا جيوش مسيلمة إلى ما وراء خطوطها الأولى .

الذين ابتغوا
الشهادة ففازوا بها

وكانت جيوش مسيلمة تقاتل قتال المستيئس هي كذلك . كانت تقاتل عن وطنها ، وتقاتل عن أحسابها ، وتقاتل عن عقيدة مريضة هي عندها دون الوطن ، ودون الحسب مقاماً ؛ لذلك ثبتت للمسلمين وجعلت تردُّ منهم من تستطيع رده ، وتحارب عن كل شبر من الأرض لا تتزحزح عنه حتى تعود وتحاول استرداده .

جيوش مسيلمة
تقاتل قتال
المستيئس

لم يُرْعَ خالد لاستبسال بني حنيفة ، بل أيقن حين سمع صيحات المسلمين ، ورأى إقدامهم على الموت مستبشرين ، أنه ملك زمام اليوم ، وأن النصر صار منهم قريباً .

لكنه حرص مع ذلك على أن يرى المسلمون هذا النصر قريباً كما يراه هو . لذلك خرج على رأس رجاله وقال لحماته : « لا أوتين من خلفي » ، ثم صاح صيحة المعركة : « يا محمداه » . وهو لم يكن يريد بخروجه وبصيحته أن يشدد العزائم فحسب ، بل كان يريد كذلك أن يسلك إلى النصر أسرع طرقه ، وأن يستله من مكمنه . فقد رأى بني حنيفة يسقطون حول مسيلمة قتلى لا يبالون الموت ، فأيقن أن أقرب الطرق إلى النصر قتل مسيلمة نفسه . لذلك داور برجاله حتى كان حياً ، ثم جعل يستدرجه ليخرج إليه . وأقبل المحيطون بمسيلمة يخرجون إلى لقاء خالد فيلقاهم الموت من سيفه قبل أن يبلغوه . وكثر

خالد يداور
ليقتل مسيلمة

في هؤلاء القتل ، وشعر مسيلمة بالخرى يركبه لشدة جبنه ، فساورته نفسه أن يخرج كما خرجوا . لكنه أيقن أنه مقتول إن خرج لا محالة ؛ فتردد واضطرب . وإنه لفي اضطرابه وتردده إذ شد خالد بن الوليد برجاله عليه وعلى من حوله وركبهم يعملون فيهم السلاح . هنالك صاح أصحاب مسيلمة به : « أين ما كنت تعدنا ! » فأجابهم وقد ولي مدبراً : « قاتلوا عن أحسابكم » . وكيف يقاتلون وقد أسرع هو إلى الفرار ! أو ليس المنطق أن يتبعوه فأراً كما اتبعوه نبيّاً !

ورأى محكم بن الطفيل فرار القوم ، ورأى المسلمين يتعقبونهم ، فصاح بهم : « يا بني حنيفة ! الحديقة » ، يريد منهم أن يحتموا بها . وكانت هذه احتامهم بالحديقة الحديقة على مقربة منهم ، وكانت لمسيلمة وتدعى حديقة الرحمان ، وكانت فسيحة الأرجاء منيعة الجدران كأنها الحصن . وقد فروا إليها وتحصنوا بها من هزيمتهم بعد أن خر الألوف منهم صرعى مُجَدِّلِينَ في الميدان بسيوف المسلمين . ووقف المحكم برجاله يحمى ظهورهم في أثناء فرارهم . وإنه لذلك يحاول صد المسلمين ويجرّض رجاله على دفعهم ، ويقاوم وإياهم أشد قتال حتى يتحصن قومه ، إذ رماه عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق بسهم وقع في نحره فقتله .

تحصن مسيلمة وقومه بالحديقة . أفحصهم المسلمون وإن طال حصارهم ؟ كلا ! إن هذا الجيش الشمل بنشوة الظفر يريد النصر كاملاً ؛ ويريده سريعاً . لذلك أحاط بالحديقة يلتمس فيها فرجة تغنيه عن فتح بابها الوثيق الرّاج فلم يجد . قال البراء بن مالك : « يا معشر المسلمين ، ألقوني عليهم في الحديقة » . قال الناس : « لا تفعل يا براء » . وماذا عسى أن يصنع البراء وحده بين هذه الألوف التي تكدست في الحديقة لاجئة من الموت ! لكن البراء أصر على قوله وزاد : « والله لتطرحنني عليهم فيها » ورفع المسلمون إلى أعلى الجدار ، فلما رأى القوم كثرتهم تردد وتراجع وقال : أنزلوني . لكنه ما لبث أن عاد يقول : احمولوني . وتكرر ذلك منه . ثم إنه وقف على الجدار تحدثه نفسه : إنه البراء البطل الذي يتحدث الناس في شبه الجزيرة كلها بفعاله ، ألا لئن عاد أدراجه

البراء بن مالك
يتصور الحديقة
ثم يفتح بابها

ليقولنَّ الناس : همَّ ولم يفعل ، وليذهبن ذلك بشهرته في البطولة ، وليتندرن الناس بإحجامه بعد الأقدام . وإن حدث ذلك فاذا يبتى له ، وأى وجه يطالع الناس به ! لذلك نضاً عنه تردده وألقى بنفسه على بنى حنيفة أمام باب الحديقة ، فقاتلهم وقتل يمنة ويسرة ، حتى فتح الباب للمسلمين ، ودخلوا منه زُمراً تلعب في أيديهم سيوفهم ، ويطل الموت من حديق عيونهم ؛ فما لبث بنو حنيفة حين رأوهم أن فروا أمامهم يترامضون في الحديقة التي انقلبت سجنًا تراكض الأغنام رأت الذابح يدخل عليها بسكينته .

هذه رواية . ورواية أخرى أن المسلمين تسوّروا الحديقة من الجدران وحاولوا اقتحام الباب . ولعل البراء كان بين الذين تسوّروا الجدران أقربهم مكانًا من الباب ، وأنه ألقى بنفسه في الحديقة ففتحه للمسلمين بعد أن قاتل من وجده من القوم دونه ؛ وذلك حين كان اللاجئون إلى الحديقة في شغل عنه بمن شلوا عليهم يرمونهم بالنبل من أعلى .

اقتحام المسلمين
الحديقة ومهاجمتهم
جيوش مسيلمة بها

اقتحم المسلمون الحديقة والتحموا بأعدائهم فيها ، وما عسى أن تجدى سيوف بنى حنيفة والأشجار من حولهم تعوقهم ! مع ذلك استحر القتال وكثر القتل بين الفريقين ، وإن زاد قتل بنى حنيفة على قتلى المسلمين أضعافًا مضاعفة . وكان وحشئ^١ الحبشي قد أسلم بعد أحد ، وبعد أن قتل حمزة سيد الشهداء فيها ، وكان حاضراً اليمامة . ولقد رأى مسيامة في الحديقة فهز حربته ، حتى إذا رضى عنها دفعها عليه فأصابته . وقد اشترك معه رجل من الأنصار ضرب مسيلمة بسيفه ، فكان وحشئ يقول : ربك أعلم أينما قتله . وصاح رجل يقول : قتله العبد الأسود .

مقتل مسيلمة

انهذت عزائم بنى حنيفة حين سمعوا الصيحة بموت مسيلمة وأسلموا أنفسهم لا يقاتلون ، وأمعن المسلمون فيهم قتلاً . فلم تعرف بلاد العرب في تلك العصور موقعة كان فيها ما كان في موقعة اليمامة من دماء . لذلك أطلق على حديقة الرحمان اسم حديقة الموت ، ولا يزال هذا اسمها في كتب التاريخ جميعاً .

ولما انتهت الموقعة أمر خالد فجاء بمسجاة من فسطاطه ، فطلب إليه

مراجعة يدل خالد
على مسيلمة

أن يدلّهُ على مُسليمة . وجعل القوم يكشفون عن القتلى حتى مروا بمحكّم اليمامة ، وكان المحكم وسيما ، فلما رآه خالد سأل مجاعة : هذا صاحبكم ؟ وأجاب مجاعة : لا ! هذا والله خير منه وأكرم ، هذا محكّم اليمامة . ودخل خالد ومجاعة حديقة الموت فرّوا بجثة ذلك الرويحل الأصيفر الأخينس ، فقال مجاعة : هذا صاحبكم قد فرغتم منه . وقال خالد : هذا الذى فعل بكم ما فعل .

الآن وقد انتهت فتنة مسليمة ، واجتث أصلها ، وقد قُضي على جيشه هذا القضاء المبرم ، أفأنا لخالد أن يطمئن ولخنده أن يستريح ؟

كلا ! ليس هذا من طبع خالد ، وليست هذه السياسة سياسته فى الحرب . إنما سياسته أن يبلغ النصر مداه حتى لا يترك وراءه ما قد تُخشى عواقبه . لم يكفه من حرب بنى أسد ومن والاهم فرار طليحة ، بل بقي حتى استبرأ الأرض ، وحتى قضى على أم زمل وفلوها . وهو لم يدع بنى تميم حتى قضى فى ديارهم على كل نافخ فى نار للفتنة أو فى رماد . وكذلك فعل ها هنا . قال له عبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبى بكر وقد فرغ من بلحوا إلى حديقة الموت : « ارتحل بنا وبالناس فانزل على الحصون » ، يريدان حصون اليمامة . فكان جواب خالد : « دعانى أبث الخيول فألقط من ليس بالحصون ، ثم أرى رأيى » . وبث الخيول فجاءوا بما وجدوا من مال ونساء وصبيان ، فضمه إلى العسكر . ثم نادى بالرحيل لينزل على الحصون فيفتضها على من بها ، ويفرغ بذلك من بنى حنيقة فلا تقوم لهم من بعد قائمة أبداً .

كان خالد قد وثق بمجاعة بعد الذى كان من جواره أم تميم ، ومن إخلاصه القول له فى مسيامة ومن معه . وجاء مجاعة هذا إليه وقال : والله ما جاءك إلا سرعان الناس ، وإن الحصون لمسلوعة رجالا ، فهل لك إلى الصلح على ما ورأى ؟ ونظر خالد إلى جيشه فرأى قوماً نهكتهم الحرب وقد أصيب من أشراف الناس فيهم خاق كثير ، وهم إلى ذلك حراص على أن يعودوا متوجين بفخار النصر . أما وقد يكون مجاعة صادقاً فقد رأى خالد من الخير أن يصلحه . وتصالحا على أن يحتفظ المسلمون بما غنموا إلا نصف السبي .

خالد يتابع المعركة حتى يبلغ النصر مداه

الصلح بين خالد ومجاعة

واستطرد مجاعة يقول : الآن آتى قوى فأعرض عليهم ما قد صنعت . وانطلق فقال للنساء : البسن الحديد ثم أشرفن على الحصون . وقد فعلن . وراهن خالد فأيقن أن مجاعة لم يكذبه . وعاد مجاعة يزعم أنهم أبوا أن يجيزوا ما صنع ، وإنما أشرف على رموس الحصون منهم من أشرف حتى يرجع إليهم فيروا رأيهم . ونزل خالد عن النصف مما كان قد تصالح عليه من السبي . فلما فتحت الحصون لم يجد بها إلا النساء والصبيان ومشixe فانية ورجالا ضعفى . عند ذلك نظر إلى مجاعة مغضباً وقال : ويحك ! خدعتنى ! وأجاب مجاعة مطمئناً : هم قوى ، ولم أستطع إلا ما صنعت . وأكبر منه خالد صدق وطنيته فأجاز الصالح وسرح صاحبه .

ويروى أن مجاعة ذهب إلى قومه قبل كتابة عهد الصلح ، وقبل أن يرى خالد من بالحصون ، فعرضه عليهم ، فاعترضه سلمة بن عمير الحنفى وقال : « لا والله لا نقبل حتى نبعث إلى أهل القرى والعبيد فقتل ولا نصالح خالداً ؛ فإن الحصون منيعة والطعام كثير والشتاء قد حضر » . وأجابه مجاعة : « إنك امرؤ غر مشنوم . غرك أنى خدعت القوم حتى أجابوني إلى الصلح ، فهل بقى أحد فيه خير أو به دفع ! وإنما بادرتكم قبل أن يصيبكم ما قال شرحبيل بن مسلمة : قبل أن تستردف النساء سبيات ، ويُنكحن غير حظيات » . وسمع إليه القوم فأجازوا صلحه ولم يحفلوا قول سلمة بن عمير .

وجاء خالداً رسول من أبى بكر ومعه أمر أن يقتل كل قادر على القتال من بنى حنيفة . لكن خالداً كان قد صالحهم ؛ وهو رجل متى عهد وفى . وحشّر بنو حنيفة للبيعة والبراءة مما كانوا عليه ؛ وجرى بهم إلى خالد فى عسكره ، فبايعوا وأعلنوا براءتهم من الردة ورجوعهم إلى الإسلام . وبعث خالد بوفد منهم إلى أبى بكر بالمدينة . فلما قدموا عليه قال لهم : ما هذا الذى استذل منكم ما استذل ؟ قالوا : يا خليفة رسول الله ، قد كان الذى بلغك مما أصابنا ، وقد كان امرأ لم يبارك الله له ولا لعشيرته فيه .

رسالة أبى بكر إلى
خالد وإنفاذه
الصلح برغمها

ولعلك تسأل : كيف رضى خالد عن مجاعة بعد أن خدعه ، وخالد من نعرف بأساً وشدة ! لكن نصر المسلمين المؤزر جعل خالداً أدنى إلى التسامح ؛

عدد القتلى من
بنى حنيفة

وقد بلغ قتلى بنى حنيفة مبلغاً زاده تساعجاً . قيل إن الذين قُتلوا في حديقة الموت بلغوا سبعة آلاف ، وإن مثل هذا العدد قُتل منهم في الميدان ، وإن سبعة آلاف أخرى قتلوا حين بثّ خالد جنوده تطارد الفارين . هذا إلى أن الصالح الذي عقده مجاعة قد ترك للمسلمين كل ما غنموا من ذهب وفضة ، وسلاح ، وجعل لهم ربيع السبي ، وجعل لهم في كل قرية من قرى بنى حنيفة حديقة ومزرعة يختارهما خالد . فإن يكن مجاعة قد أنجى بعد ذلك من بقي من قومه فلم يقتل منهم كل قادر على القتال ، فإن قومه جميعاً قد رجعوا إلى الإسلام وأقرّوا بسلطان أبي بكر . أما وقد بلغ خالد ذلك كله فليس له أن يغضب من مجاعة لخدعته أو ينقم منه بسببها .

وكما بلغ قتلى بنى حنيفة ذلك العدد الذي لم يكن يدور بخلد أحد من أهل ذلك العصر في بلاد العرب ، بلغ عدد القتلى من المسلمين مبلغاً جاوز كل ما كان يجري في تقديرهم . قُتل فيها من المهاجرين ثلثمائة وستون ، ومن الأنصار ثلثمائة ، وذلك خلا من قتلوا من أهل القبائل . وبلغ مجموع قتلى المسلمين مائتين وألفاً .

ولقد عيّر المهاجرون والأنصار أهل القبائل وفاخروهم بعدد قتلهم . ولم يكن تفوق المهاجرين والأنصار مقصوداً على زيادة العدد في القتلى ، بل كان بين هؤلاء تسعة وثلاثون من كبار الصحابة ومن حفاظ القرآن . وأنت تعرف ما هؤلاء وأولئك من قدر ومقام بين المسلمين . ولكن ! ربّ ضارّة نافعة ؛ فقد كان مقتل هؤلاء الحفاظ سبب جمع القرآن في خلافة أبي بكر مخافة أن يستحر القتل في سائرهم من بعد ، كما استحر فيمن حضر منهم غزوة اليمامة .

حزن المسلمين
بمكة والمدينة على
القتلى

ولم يكن يعدل حزن المسلمين بمكة والمدينة على هؤلاء القتلى إلا فرحهم بما آتاهم الله من النصر . عاد عبد الله بن عمر بن الخطاب بعد أن أبلى في اليمامة أحسن البلاء . فاما لقيه أبوه قال له : « ما جاء بك وقد هلك زيد ! ألا وارىت وجهك غنى ! » . وأجاب عبد الله : « قد حرصت على ذلك أن يكون ، ولكن نفسي تأخرت فأكرم الله بالشهادة » . وفي رواية أنه قال :

« سأل الله الشهادة فأعطيتها ، وجهدت أن تساق إلى فلم أعطيها » . وليس حزن عمر لمقتل أخيه زيد إلا مثلاً لما عمّ مكة والمدينة من أسى على الأبطال الذين استشهدوا في قتال مسيئة .

أفحزن خالد بن الوليد كما حزنوا ؟ أفأزعجه منظر القتلى وروعه مسيل الدماء ؟ ! كلا ! ولو أن ذلك كان لما جاز له يوماً أن يتولى القيادة ، وأن يكون فاتح العراق والشام ، وموطد الأساس الأول للإمبراطورية الإسلامية . وأين القائد القادر الذي لا يهتز طرباً حين يرى الألوف من الأعداء يخرون صرعى أمام جيوشه ! لم يرع خالد إذن ولم ينزعج ، بل إنه لم يلبث حين اطمأن إلى النصر وأتم الصلح وتسلم زمام الأمر أن دعا مجاعة إليه وقال له : « زوجني ابنتك » . وكان مجاعة قد سمع بحديث ليلي أم تميم وباستدعاء أبي بكر خالداً وتعنيفه إياه على ما فعل مما يخالف تقاليد العرب ، فقال : « مهلاً ! إنك قاطع ظهري وظهرك معي عند صاحبك » . ولم يعجب خالد هذا الكلام فلم يعره أية عناية بل حلق إلى الرجل وقال : « أيها الرجل زوجني » . ومن ذا يستطيع أن يعصى له لأثر نصره في الينامة أمراً ! وزوجه مجاعة ابنته ، فدخل بها في بيت أبيها ، ثم جعل لها فسطاطاً يجاور فسطاط أم تميم .

خالد يتزوج
ابنة مجاعة

وبلغ أبا بكر ما صنع خالد ، فتولته الدهشة أول ما عرفه ، ثم استحالته الدهشة غضباً ، فاستحال الغضب ثورة . لقد كان كل دفاعه عنه في حادث أم تميم أنه لم يقتل زوجها ليتزوجها ، وأنه إن يكن أخطأ فإنما خطؤه أنه خالف تقاليد العرب وصنع ما يعيبونه من مثل هذا الزواج والدماء تقطر والمآثم قائمة . فكيف به يكرر فعلته في الينامة وقد قُتل بها من المسلمين مائتان وألف ولم يكن قتل منهم أحد في حادث مالك بن نويرة ! لذلك لم يملك أبو بكر ، وهو الحليم ، غضبه ، بل دفعته ثورته فكتب إليه كتاباً « يقطر بالدم » على حد تعبير الطبري ، جاء فيه : « لعمرى يا بن أم خالد إنك لفارغ ! تنكح النساء وبفناء بيتك دم ألف ومائتي رجل من المسلمين لم يخفف بعد ! » وتناول خالد الكتاب ونظر فيه فتألم لغضب أبي بكر وهز رأسه يقول : هذا عمل الأعيسر ، يعني عمر بن الخطاب . لكن الأمر لم يجاوز الأسف

ثورة أبي بكر
لزوج خالد
وكتابه إليه في ذلك

لغضب أبي بكر من جانب خالد ، ولم يجاوز هذه الثورة على خالد وهذا الكتاب إليه من جانب أبي بكر .

عذر خالد بالغ

ومن تكون بنت مُجَاعَة في أعياد النصر التي يجب أن تقام لخالد ! إنها لن تزيد على قُربان يطرح على قدمي هذا العبقري الفاتح الذي روى أرض اليمامة بالدماء لعلها تظهر من رجسها . بل إنها لن تزيد على جارية من الجوارى اللاتي يضررن بالدخوف في هذه الأعياد ويتغنين مطربات ، أن عاد مهد الإسلام كاملاً إلى حسي الإسلام . لكن ! تبارك اسمك اللهم ! إن الإسلام لا يعرف هذه الأعياد ؟ وإنما يعرف أن النصر من عند الله يؤتاه من يشاء . وقد آتاه خالداً ، فأعز به دينه الحق ، ومحق به الردة والمرتدين .

عما خالد الردة والمرتدين بغزوة اليمامة ومحقهم . بذلك آن لبلاد العرب أن تطمئن وتدين بدين الله . فأما ما بقي من أنباء حروب الردة بمهرة وعُمان واليمن مما تلا اليمامة فلم يكن في مثل خطرهما . من ثم آن لأبي بكر بعد اليمامة أن تسكن نفسه ، وأن لخالد بعدها أن يستريح .

وتحول خالد إلى واد من أودية اليمامة يقال له الوبر ، وكان له به منزل جمع فيه بنت مجاعة وأم تميم .

أفطال هناك مقامه وكملت هناك راحته ؟ ذلك شأن لم تحدثنا به كتب التاريخ .

لكن سياسة أبي بكر وسياسة الإسلام كانت لا تزال في حاجة إلى سيف خالد ، وسنلقاه لذلك عما قريب . فإلى الملتقى عبقري الحرب وسيف الله ! إلى الملتقى على شواطئ الفرات ! .